بيان ٥ حزيران ١٩٦٧

بقلم أدونيس

من انا ؟ هل اعرف نفسي ؟ دخل غيري عصر الكهرباء والآلة والالكترون والذرة . يصلون الى القمر . يفتحون صفحة جديدة في سفر التكوين الانساني . سرت قليلا ، تعلمت قليلا . امتلك ثروة كالبحر ، وانا الان واضع يدي على ارض يجري فيها الذهب انهارا . حاولت ان احرج من بدائيتي الزراعية الى عالم الصناعة والالة . حاولت ان ادخل عالم الفكر ...

لكن هل استخدم السيارة حقا ام انني استخدم **فرسا من حديد** ؟ هل اقود الطائرة حقا ، ام انني اقود **« احدى اعاجيب الفضاء »** ـ شيئا غريبا **« نصفه طير ونصف بشر »** ؟ هل تعلمت الهندسة حقا ، ام انني اخذت شهادة **زينت بها دالوسام** ؟ هل استخدم الطاقة الكهربائية ، ام انني استخدم **شموعا من الزجاج ومصابيح تشتعل بلا زيت** ؟ هل ان سيري تقدم حقا ، ام انه **ضخب ورايات** ؟ هل الدولة التي أبنيها نظام حقا ، ام هي **قبيلة تابية** ؟ هل ما اسميه نهضة او ثورة او انقلابا ، نهضة او ثورة او انقلاب بالفعل ؟

الفكر العظيم ، وحده ، يصنع القضايا العظيمة . هل انا في حياة لا تعرف الفكر العظيم : ليس لها ، اذن ، قضية عظيمة ؟ لا تستطيع اذن ان تقوم بأي عمل عظيم ؟

وان قلت انني مفكر ، اتساءل اين انا موجود وكيف؟ اين مجال تأثيري وفعلي ، واية سلطة لي ، وما هي القيم التي أنشأتها ، او دافعت عنها ، او حميتها ؟ الحرية ، الحقيقة ، المحبة ؟ حرية البحث عن الحرية والحقيقة والمحبة ؟ هل دافعت عن الفكر عند كل مفكر ، ام عن افكاري انا وحدي؟ هل اضطهدت او سجنت او استشهدت من اجل اقامة الفكر وحق الفكر في الحوار بين الاطراف ، ام اخونّ كل فكر غير فكري وانفيه ؟ وان كنت اخونّ كل فكر في وطني غير فكري ، أفلا يعني هذا انني جزء من وطن خائن بمعنى ما ، ومن شعب خائن بمعنى ما ، وانني قابل جاهز ، كل لحظة ، ان اكون ، بدوري ، خائنا ؟ وحين خونت غيري هل كنت أمينا ، وهل كنته بقوة الحقيقة ام بقوة الشعب أم بقوة السيف ؟ وبأي اسلوب حكمت على غيري ، بالحوار والاقناع ام بالخنجر والرصاصة ؟ وما هو مقياسي في الحكم عليه ؟ وهل السلطة التي حكمت بها عليه سلطة السجن ام سلطة العقل ؟ وحين نفيته ماذا اثبت ؟ وحين قلت انه طاقة هدم وسلب فهل كنت انا طاقة ايجاب وبناء ؟

هل انا شخص اخر ؟ هل يحيا في اسلافي الذين ابتكروا الابجديه ، وفرأوا البحر ، ومدوا قوس حضاره تتلالا بين سمرقند وعرباطه ، ام الحصي الفهرمان المملوك هو من يحيا ؟ هل انا في يقطه حقا ، ام في وهم اليقطه واحلامها ... في انحطاط حصيب أخضر ؟

هل انا انسان **كان** لا انسان **يكون** ؟ اتتململ منذ ولادته . الزمن ليس مجالا لتحوله او لصيرورته ، بل هو وسيله لاستعاده ذاته . ولانه المستعيد ابدا ، يحول نظره عن الواقع . يؤوله مثاليا : الفقر ، مثلا ، امتحان للنفس ، لا خنق للانسان . الانكسار نكسة لا هزيمة . ليس العدو المباشر هو من يغلبني . يغلبني العدو الآخر ، غير المباشر ، المستتر .

هل انا فكر لا يعنى بالموضوع ، وانما يعنى بعلاقته الشخصية مع هذا الموضوع ؟ لا يرى من الاشياء والموضوعات الا التماعاتها وجوانبها . فكر **ينتزه** ، لا فكر **يبحث** . يحول الاشياء الى انفعالات وانطباعات ، لا الى قضايا . كل شيء يصير نسبيا ، جزئيا : الحقيقة هي التي يعلنها هذا الفرد او ذاك ، وما عداها باطل . الحرية هي هذه لا تلك . ما عداها الفوضى او ما يشبهها . والحق هو انا لا هو . **هو يصير حقا حين يفنى في ما اريده .**

هل أعيش في نسيج زماني خالص ، في معزل عن الارض ؟ هل المكان عندي جسر ، هل هو اصطلاح لفظي وحسب ؟ هل الارض عندي لكي ازرعها واستمتع بخيراتها وحسب ، وليست جزءا حيا من جسدي ، وبعدا من ابعاده ؟ هل الارض بالنسبة الي متساوية ، ولهذا احب الهجرة واتأقلم حيث اكون واذوب ؟ هل الارض فرس ثانية امتطيها في طريقي نحو الآخرة ؟ هل حين ادافع عن المكان الذي اسكنه ادافع حقا عن الارض ، ام عن ملكي على هذه الارض ؟ هل اعتبر الارض كالملك : يتبدل، ينقص، يزيد ... يتضمن امكان ان يزول ـ يتضمن ، لذلك ، امكان التخلي عنه ؟

***

هل انا نموذج « المهاجر » ؟ لا تهمه الارض ، بل يهمه ان يظل في هجرة . الارض التي يحبها هي الارض التي تطيب له ، لا التي ولد فيها ، بالضرورة ؟ ثمة سهولة عندي في ان اترك بيتي . كأنني مستعد ان اموت في سبيل **فكرة ما** ، لا في سبيل **ارض ما** . كأنني كائن في

اللوغوس ، في الكلمة ، لا في الطبيعة .

هل انا نموذج تراجيدي من نوع فريد ؟ ليست الارض لي مستقرا ، بل ممر . احب المندفعين **معي من الماضي . اكره الاتين من المستقبل ، ومن المجهول . احارب لاسترجع حريه مروري على الارض ، لا الارض ذاتها .** ليس وطني هنا والان ــ بل الاخره التي تلتقي بالماضي في مكان اخر من نوع غير ارضي .

هل انا شخص ينظر الى الشعب نظرته الى الارض ؟ **الشعب للارض ممر هجره . احارب لا لانقذه ، بل لانقذ سيادتي فيه وعليه .** الشعب قناع لي ، لباس ، سلاح . يتغير لون القناع ، يتمزق الثوب ، يتكسر السلاح : كذلك الشعب . يهمني ان ابقى متسلحا ، مقنعا ، لابسا بشكل او آخر .

انا قيمة ثابتة والشعب قيمة متحولة . انا الاصل وهو الظل . الذلك اتارجح بين قطبين . ملك وشحاذ ، طاغية وسجين ، نبي ودجال ؟ انا فوق الانسان ودونه في آن . العالم ، لذلك ، فوق طاقتي ودونها في ان . كأنني احيا خارج العالم .

***

انا ، طارح هذه الاسئله ، هو **الانسان العربي** ، العائش اليوم ، في هذا النصف الثاني من القرن العشرين . بهذه الاسئله (يمكن طرح اسئلة كثيره غيرها) احاول ان اعيد النظر : فيّ ، في هذا الانسان ، قبل اعادة النظر في الحياة العربية . فليست المسألة ان تتغير هذه الحياة اي المجتمع ومؤسساته ، بقدر ما هي ان يتغير الانسان العربي : من هنا وحسب ، تبدا اهميه العلم والتقنية وتغيير الحياة العربية .

اننا نعيش النتائج الفاجعة لانجرافنا ، طيلة السنوات الخمسين الاخيرة ، وراء التغيرات من خارج ، واهمال الانسان من داخل . فالحياة العربية تنقل ، على نحو سريع ، الاشكال المدنية ، الاوروبية والاميركية ، وتمارس وسائل العلم التطبيقية صناعة وزراعة وعيشا يوميا . لكن الانسان باق لم يتغير . يبدو ، في تزاحم تلك الوسائل والاشكال ، مأخوذا مبهورا . يظن انه يستعيض بالكمّ عن الكيف ، وبالشكل عن الجوهر . شخصيته من داخل ما تزال كما كانت منذ خمسة عشر قرنا . كأنه أثر تاريخي من القرن الخامس ، يلبس شكل الانسان ، يأكل ، ينام ، يتحرك ، بمعجزة ما ، في القرن العشرين .

يستخدم الثياب التي يخلعها العالم في مسيرته الابداعية ــ ثياب العرق والتعب والكشوف والتغيير . ويظن العربي اذ يستخدم هذه الثياب ، انه يتساوى مع العالم المبدع . ولئن اتاحت له ان يجتاز ما بينهما من مسافة الشكل فانها لا تتيح له اجتياز مسافة الجوهر ــ مسافة الحضارة .

هكذا لا يبدو العربي غريبا عن نفسه وحسب ، وانما يبدو الى ذلك غريبا عن العالم . انه وجود مؤجّل . وفيما هو يستمر ، ناقلا مقلدا ، يبدو غصنا مصطنعا في شجره الحضاره المعاصره ... بثمار مصطنعة يؤتى بها من هنا وهناك وتلصق عليه . ويراد لها ، في احيان كثيره ، التصديق بانها طبيعيه تتدلى من غصن طبيعي . ان بين العربي والعربي تحياه يوميه ، مسافة طويله ، يعبرها الصراع والتمزق والتعب . ان العربي المعاصر يحيا في ثيابين . **ثابه المعرفه في السلفيه ،** وحياته المتهالكه على اشكال المدنيه الحديثه .

يدرس الفيزياء والكيمياء والذره والبيولوجيا والرياضيات ، لكن معنى هذه الدراسه لا يتجاوز كتابه وراسه ودفاتره . يبقى في اعماقه ، في جوهر حضوره الانساني في معزل عن هذه العلوم ، من حيث انها كشوف ومبادىء وقوانين تعيد خلق الحياه والعالم .

انه يتبنى التقدم نظريا ، ويحيا عمليا في الاطار السلفي التقليدي . انه يقدس الحريه بشقيها وحسب . يساري بفكره وفي الظروف العاديه ، لكنه في الظروف المصيريه الحاسمه ، واحيانا في الظروف العادية نفسها يميني بسلوكه وحياته . يريد ان يصنع التاريخ فيما يهرب منه . يود ان يحارب فيما يسعى للتخلص من الحرب . انه في ان فاشي ورابع ، صياد وفريسه ، شجاع وجبان ، شيوعي وبورجوازي ، شرقي وغربي . انه جهاز استيعاب . ينقل العالم دون ان يحوله او يصهره في ذاته . الثقافه بالنسبه اليه كسب يحفظه في وعاء الذاكره ، لا معرفه تتداخل في كيانه وحياته . ليس حضوره في الزمان تآلفا وتركيبا ، وانما هو حضور فردي ، منعزل ، كالمسمار والحصاه . كأنه ليس موجودا الا على مستوى الحس والشيء .

***

الانسان العربي الثوري يخسر الواقع ، فيما يزداد تشبثا بالنظرية . يهمل الانسان ويتمسك بالعقيدة . يحتقر المواطن ويمجد المرتزق : ان ثمة مشكلة حقيقية يواجهها الثوري العربي قد لا يكون لها مثيل في تاريخ الانسان : لم تعد المسألة ان يقنع المواطن بعقيدة او نظام او مبدأ . المسألة اليوم هي ان يقنع المواطن بأن له وطنا .

هذا العربي الثوري ينتقد ، يهدم ، يدين ، يحكم باسم الثورة لكنه فيما ينشط ، يمارس سلطانه على الكلمات ، لا على الواقع . **يغير تشكيلة الكلمات في النطق ، في الجملة ، فيخيل اليه انه يغير تشكيلة الحياة .**

***

والانسان العربي **المفكر** ، شاعرا ورساما وموسيقيا وفيلسوفا وكاتبا ومربيا ، خلق في السنوات العشرين الاخيرة حياة بابلية بامتياز . جعل من اجيالنا الات استذلها لنير التقليد الغربي ، او لنير التقليد الرجعي ، او لنير الجهالة . ساعد ، سلبا او ايجابا ، بالصمت او بالكلام ، على ان يكون الشعب وثرواته وتراثه في خدمة الحاكم ونظامه . شارك في جعل الحزب اعلى من الوطن

والشعب ، والعقيدة اسمى من الحقيقة والانسان . حول المدارس الى خلايا ببغاوات تزدرد وتصوت وتمومىء . حول الجامعات الى مصاهر تقلب الاميين وانصاف الاميين الى عباقرة وقادة شعوب . جعل من الكتاب جثة ومن الكلمة مومياء .

التسويغ ، الصمت ، العزلة ، الاستسلام لعصا الحاكم ، ــ هذه مظاهر يحفل بها الفكر العربي المعاصر . وهي تتضمن تواطؤا على الحقيقة والفكر والحرية ، او مشاركة في التواطؤ او تغاضيا عنه . قلما وقف ، طيلة السنوات العشرين الاخيرة ، تمردا على طاغية ، او انتصارا لمضطهد او مسجون او محروم . حتى الانتصار للحرية كحرية ، للعدالة كعداله ، للحقيقة كحقيقة ، لم يكن يجمع بين ممثليه . كانوا دون مستوى العدالة والحقيقة والحرية . كانوا ينخرون الانسان نفسه والشعب نفسه والوطن نفسه ، فيما ينخرون شجرة الحرية .

***

هذا الشبح الذي اسميه الفكر العربي المعاصر ، اتهمه ، وانا جزء منه ، بأنه **عاجز جاهل** . لا يعرف احدا . لا العربي ولا غير العربي . لا يقدر ان يطال احدا . لا العربي ولا غير العربي . اتهمه انه **تابع ومسحوق** .

ثمة مفكرون لا يتجاسرون على الجهر بايمانهم ، لا يتجاسرون على التلفظ بالحقيقة والشهادة للحق . ثمة مفكرون اصغر من كبر الاعتراف بالخطأ حين يخطئون ومن تغيير ارائهم وافكارهم حين تثبت لهم الحياة والتجربة بطلانها . ثمة مفكرون يؤثرون ان يملكوا دكانا على ان يملكوا مكتبة . ثمة مفكرون يدعمون الطاغية الذي يضطهد مفكرين اخرين . ثمة مفكرون يتكدسون كالهشيم . ثمة مفكرون موتى وهم يتحركون : ضيقون ، منغلقون . **المصلحة عندهم قبل الحقيقة ، والسلامة قبل الحرية .**

الفكر هو الكلمة ــ الفعل ، وهو كذلك ان تكون الكلمة ــ الفعل في البدء . الى ان يولد الفكر حقا ، ويولد من يفكر حقا ، ستبقى الحياة العربية تبدو كتلا ضخمة من اجساد تتحرك ، تتقدم ، تتأخر ، تصطرع ، تتجمع . . لكنها تبقى في **نظام التكتيل لا نظام التكوين ، في نظام الموتى ، لا نظام الاحياء .**

وسيبقى المفكرون قطعا من الخشب اليابس في نهر التاريخ . تتكوم في المنعطفات وعلى الضفاف . هي في النهر وخارج النهر . هي على الشاطىء وفي اللجة . لكنها ليست الماء في اي حال . وليست المصب ولا النبع .

***

والانسان العربي **السياسي** ؟ لقد بذر في السنوات الخمسين الاخيرة ثروات تكفي لان تمحو من البلاد العربية الامية والمرض ، وتفتح الطرق الحديثة ، وتؤسس الجامعات والمعاهد التقنية ، وتنشىء مشاريع الانتاج والعمل والتصنيع ، وتجعل من كل قرية نواة تقدم ، ومن كل بيت حصنا علميا .

ان من يريد ان يحكم عليه بصدق لا يستطيع الا ان يصرخ في وجهه : ايها السيد ، انك تعش نفسك ، وتعش بلادك ، وتعش فيها الانسان ، وتعش الارض .

ولا يستطيع ، من تم ، الا ان يقول له : لقد ضيعتك ايها السيد ، خلال ذلك ، زمن الفرد العربي . جمدته في مستنقعات القرون الوسطى وما قبلها ، واقمت سدا بينه وبين الحضاره ، بينه وبين شمس المستقبل . ولئن كان ما يزال يتململ وينبض ، في رماده ، بشكل معجز ، فلأنه ، في اساسه ، خميرة قد يندر مثيلها !

ثم يقول له : ايها السيد ، لن نسمح لك بعد اليوم ان تفسد هذه الخميرة .

ذلك ما ينبغي على المفكر العربي ان يوقن به ، ويعلنه ، ويرهن به وجوده . لكن هذا ليس هينا . لقد **تحالف رجل السياسه مع رجل المال لاباده الفكر** ، ولتحويل المفكر الى موظف . واصبح المفكر يعيش ، بشكل او اخر ، تحت رحمة رجل السياسه او رجل المال . وشيئا فشيئا اخذ يتنازل عن دوره في البحث عن الحقيقه ، واعاده النظر ، وقول الحق ، والتمسك المطلق بالحرية ، ويتبنى منطقهما في البحث عن المفيد المناسب ، وتسويغ كل شيء بحجة الظرف والحاله ، والتغاضي عن الظلم وتجاهل الحق بحجة الهدوء والاستقرار ، والتنازل اخيرا عن الحريه ، لان الحريه في اوضاع فاسدة تبدو ، بالطبع ، فوضى وتهديما وتخريبا ، ويبدو جميع من يمارسونها او يدعون اليها عناصر هدامة ، مخربة .

هكذا تسقط الحياة العربية ومقوماتها وطاقاتها اسيرة في **ايدي ذوي السلطه ، من رجال السياسة والمال** . اما الفكر فيصبح **دمية** . ويصبح رجال الفكر الات تقوم بوظائفها في المجتمع الذي تبنيه السياسة والمال . واما السياسة ، فلا تعود وسيلة ، **وانما تصبح** الغاية المطلقة : تصبح ، جوهريا ، السيطرة والحكم . هكذا تنحرف وتنحط . لا تعود حلبة تتنافس فيها رؤى البناء والنهوض والعمل لمستقبل انساني افضل ، وانما تصبح حلبة مغامرات . ولا يعود هناك ما يمنع من ان يصبح الامي مشترعا والجبان قائدا ، والجاهل الغبي راسما طريق المستقبل .

ماذا يعني ذلك بالنسبة الى المفكر العربي الذي يريد ان يبقى مفكرا ؟ يعني ان عليه ان يقوم بثورة **تعيد للفكر** دوره وللمفكر مكانته ومهمته ، فتقلب الاسس التي تقوم عليها الحياة العربية اليوم . ومن الاعمال المباشرة لهذه الثورة ان يقف المفكر العربي ، بروح الرجولة والحقيقة ، **فلا يترك للسياسة ــ هذا الجزء ــ ان تصبح الكل** ، وان تلتهم كل ما يحول بينها وبين ان تصبح الكل . ان مهمته الاولية الملحة هي ان يجعل من السياسة وسيلة لا غاية : هي ان يخضعها للفكر وسلطانه ، اعني الفكر النقي المتجوهر في اتون الالتزام بقضية الانسان . **فالسياسة** العظيمة هي الفكر العظيم . **ويستحيل ان يكون السياسي عظيما اذا لم يكن مفكرا عظيما .**

هناك امارات ثلاث تشهد لتغير الانسان العربي : **الحرية ، الخلق ــ الفعل ، خرق العادة** . هذه الامارات هي ، في الوقت نفسه ، ممارسات ومعانيات داخل الانسان في اعماقه، وخارجه في الحياه والواقع والمجتمع. ثم انها وحدة متكاملة . وهو لا يتغير الا بقدر ما يعانيها ويمارسها ويحياها ويسلك بمقتضاها .

١ ــ ليبدأ ، اذن ، المفكر العربي ، بأن يسترد جوهره الذي سلبته اياه السياسة : **الحرية** . كل ما يقوم به ، اذا لم ينطلق من الحرية ، لا يكون الا شكلا من اشكال الوظيفة ــ العبودية . ان غياب الحرية يجعل الحياة نسيجا هائلا من الكذب والنفاق . وحيث يسود الكذب والنفاق ، لا يعود الانسان الا قناعا . **ان عالم الاوهام هو عالمنا اليوم** . ان ثمة جسورا منسوفه بين المفكر العربي ونفسه ، بينه وبين الحقيقه ، بينه وبين الحرية : فليبدا ببناء هذه الجسور . وبقدر ما يصمد في هذا البناء ستتفتح الحياة العربيه وتنمو في اتجاه اصيل، جذري ، خلاق . وعليه ، فيما هو يبني ، ان يدرك ان ما حوله يناهضه ، انه بادىء من لا شيء ، ان حياته نفسها قد تكون بعض التضحيات التي يقدمها .

ان عليه ان يبدأ فيكون رائدا لا تابعا . ان عليه ان **يشهد** للحقيقة والحرية حتى **الاستشهاد** .

الحرية التي اعنيها ليست حرية وحيدة الطرف ، حريتي انا وحدي ، او حريته هو وحده ، وحسب . انها ، كذلك ، **حرية الاخر الذي يخالفني او يناقضني** .

الحياه ؟ **ليس لي حياة ان لم يكن لي ما يناقضها** . ارفضها حين تصير سكة عمومية. حين تكون خيطا واحدا بلون واحد ، صوتا واحدا بنبرة واحدة . **ارفض الحياة ان لم يكن فيها ما يعارضني، وينهض في وجهي، ويثيرني، ويكشفني ، ويستحثني** . ارفض الحياة المستنقع، الحياة الزريبة ، الحياة القطيع . **ارفض الحياة ان لم تكن سنفونية اصوات تصل بين الاطراف ، تجمع بين الشيء ونقيضه ، وبين النقيض وما يتجاوزه** .

النقيض يحييني : يتركني في يقظة دائمة ، يدل على اخطائي، يدفعني لكي اكون اكثر كمالا، لكي اتجاوز نفسي. انه ضوئي الاخر ..

حين يجابهني الفكر الضعيف يزداد يقيني بفكري القوي ، وحين يتصدى لي الفكر القوي اكتشف مقدار عجزي واعمل على ان اكون ذا فكر اقوى .

وحين ينهض شخص يعارض اتجاهي وموقفي ، وافكاري ، اعرف كم انا راسخ ، واعرف بالتالي مقدار ما ينبغي علي فعله لكي اكون اكثر رسوخا .

ومثل هذا الشخص ابحث عنه ، وادافع عن وجوده، لانه جزء من وجودي انا ، ولانني بغيره ناقص الوجود . اننا حين نقبل ، لحظة واحدة ، ان يكون هناك شخص واحد لا يحيا الحرية ، وحين لا نثور في وجه من يضيق افق الحرية ، ايا كانت الحجة والمناسبة واللحظة ، وحين نغفل لحظة واحدة عن حراسة الحرية ... حينذاك تصبح الحياة صحراء للشوك والقش واليباس والموت ، ونصبح نحن انفسنا اول من ييبس ويموت .

لكن ، الا تسكت جميعنا ، كل يوم ، على انتهاك الحريه ؟ الا يشارك كل منا ، كل يوم ، في خنق الحرية ؟ السنا جميعا نخدم ، الى حد ، ملكا واحدا هو العبودية.. العبوديه لشيء ما ، لمصلحة ما ، لفكرة ما ، لتاريخ ما ، لراي ما ، لموقف ما ... الا يثبت كل منا ، كل يوم ، انه ليس في مستوى الحرية ؟

ثمة ايد سحرية تتسلل بيننا وبين ثيابنا ، تحملنا ، وتمضي بنا الى شاءت . ثمة رياح خفية تعيش معنا، في مكاتبنا ، تحت الوسائد ، وبين الكتب ، وفي الابواب والنوافذ ، وفي الطرق والمقاهي ، ولا نعرف متى تتحرك وتهيج وتبعثر كل شيء . ثمة طوفان دائم التدرج في مختبر المفاجآت ، دائم الاستعداد لكي يشب ويهب ويتخرج . ثمة من يدفعنا خارج بيوتنا ، ومن يحاصرنا ويفرض علينا ان نعيش في مملكة اشباح وظلال .

من يقول اننا نتحرك فوق ارض صلبة ؟ نحن في سفينة . ما تحت اقدامنا لجة ، وما حولنا صخور وراءها صخور وراءها صخور . الارض لنا ، لكنها لغيرنا. وهي تزلج تحت اقدامنا وتنزلق وتهوي .

***

هكذا نحيا كتلة بشرية بلا شكل ، سديما انسانيا اصم ، والعلاقة التي يقيمها احدنا مع الاخر ، لا تنظمها الحرية بل العبودية . فانا لا اقيم علاقة مع الاخر لكي احرره ، بل لكي استعبده . ونحن لا نعبر عن انفسنا وحياتنا الا بالمقننات والمحرمات والمقدسات . **نخاف من تفردنا ، من فرادتنا ، من وجدانيتنا** . كل منا ، هو كذلك، سديم بلا شكل ، وانسان بلا شكل لا يقدر ان يعرف شيئا خارج ذاته ، ولهذا يحيا بعادة التكرار . يتكرر ويكرر حياته والتكرار ليس حياة .

« لو ان هناك في المدينة حرا واحدا لما تهدمت المدينة » ، هذه صرخة قديمة : هذه صرخة جديدة . فالحرية كالحياة حضور دائم ــ ولا تغيب الحرية الا حين تكون الحياة غائبة .

السنا اذن ، ونحن نساوم على الحرية ، قابلين طوعا واختيارا ، بأن ينغلق علينا العالم ، ويأتي من يساوم على وجودنا ، ومن يحتقر هذا الوجود ، ويرفضه، ويقتله؟

السنا ، اذ نقبل تجزيء الحرية وتفتيتها ، نمهد الطريق لمن يجزىء وجودنا ويفتته ؟

***

كأننا لا نحيا حياة ، بل **نحيا موتا يوميا اخرس** .

كأننا لم نعد نستطيع ان نميز بين من يسرقنا ومن يحرسنا ، او بين الخيانة والامانة ، فللسارق سحر يظهر فيه بطلا منقذا ، وللخائن سحر يظهر فيه قائدا عظيما ، وللامين سحر يظهره لصا ، وللحر سحر يظهره عبدا

مأجورا .

لاننا لم نعد نستطيع ان نفرق بين من يدافع عن الحريه ومن يهاجمها ، بين من يطلقها ومن يخنقها ، بين من يمجدها ومن يسحر منها ، بين من يرفعها مناره ورايه ومن يدوسها بقدميه .

كل شيء يختل ويتشوش . كل شيء يسمح لنا بالتساؤل : **هل الموت عندنا هو ، حقا ، موت ؟ هل الحياة عندنا هي حقا حياة ؟**

ولا عودة الى الصحة الا بالبدء من الحرية ، حيث يبدأ كل شيء .

***

٢ ــ الامارة الثانيه هي **الخلق ــ الفعل** ، هي **التعبير** .

اكثر من اي وقت مضى ، يجابه المفكر العربي سؤالا في مستوى مصيره . ما هو دوره في احداث التغير العربي وقضاياه والامه ؟ هل يبقى بعيدا ؟ ينسحب فيسكن في « قراع » العزله ، ام يتعالى فيسكن في « قراع » المستقبل ؟ ام انه ينخرط في التاريخ ويقوده ويغيره ؟

هذه الاسئلة قديمة . لكنها ، اليوم تشحن حياتنا وتصرخ في وجوهنا ، وتنزل في ضمائرنا مثقلة بالعالم والتاريخ ، بمعنى جديد اخر . ذلك ان التغير الجاري يؤكد لنا يوما بعد يوم ان قضيه الصراع الذي يخوضه العربي تتجاوز الاطار السياسي القومي الى ما هو ابعد واعمق ــ الى الانسان ذاته في حقيقته الكيانية الاخيرة . فهي اوسع من ان ننظر اليها من خارج ، على سطح التاريخ . ولئن كان السياسيون ينظرون ويعملون من هذه الناحية السياسية القومية، فان على المفكرين دورا اخر هو الكشف عن الدلائل والمعاني الحضارية .

لكننا لا نستطيع ان نعيد خلق العالم ، ان نقود التاريخ ما لم ندخل فيه . ما لم نعشه لحظة لحظة . بل اننا لا نستطيع ان نكون احرارا ، الا بدءا من الانخراط في حركة التاريخ .

كاتب يتشرنق لا يمكن ان يكون حرا . وان ظن انه حر ، فحريته هذه ليست من فعله ، بل من عطالته . ليست مجبولة بنبضه ، بشهيقه وزفيره . وانما هي خرقة مزركشة . انها حرية اللافعل .

الذين يرتضون هذه الحرية يعيشون «مصنوعين» « مجروفين » ، في حرية الورقة التي تدحرجها الريح ، والعمود الذي ينغرس في اليباس ، والحصاة المطروحة في استرخاء ابدي . فحين « ينسحب » الكاتب من حركة التاريخ ينسحب من ذاته : يعيش في جلدته بين ثيابه والغبار .

اليوم يتاح للخلاقين العرب ان يعيشوا حياة رؤيا خارقة . كل شيء حولهم يزلزل حواسهم ، ويشنج العالم في اعماقهم ، ويؤكد على الفعل . ثمة كهرباء روحية يندر مثيلها ، تسري في حياتهم . ثمة اسباب يندر مثيلها، تقودهم الى ان يعيشوا مغامرة الابداع الحقيقية : **الوحدة بين الفكر والعالم . ان الثورة ، على المستوى السياسي والقومي ، يجب ان تنبطنها وتقودها الثوره على مستوى الابداع والفكر .**

الخلاق يقود الفعل . المشاركة في الفعل طاقة عادية . القياده طاقة غير عاديه . **كل خلاق قائد ــ طاقة غير عاديه** . ان جوهر الفن الانساني ، الانساني حقا ، هو تخليص الانسان من الية الزمن والموت . اعني ، بعباره ثانية ، هو الانخراط في التاريخ . التاريخ فعل الانسان، والزمن فوه غفل . الذين يرفضون التاريخ ، يسقطون في الزمن ــ هاوية الغفل واللاشيء .

اليوم ، اكثر من اي وقت مضى ، يدعونا التاريخ . الفن ذاته ليس ، اليوم ، علم الجمال الشكلي ، بل هو علم الدلالة ــ دلاله التاريخ والمجتمع والحقيقه والكون . وفي مجتمع بلا دلالة ، لا يمكن ان يحيا الفرد الا حياة بلا دلالة .

***

٣ ــ الامارة الثالثة هي **خرق العادة** . هذه، بخاصة، ميزة المبدع : ميزه الشاعر ، بالمعنى الواسع الشامل . فالشعر هو ، جوهريا ، خرق العادة .

فلنخرق العادة ، نحن الشعراء ، في هذا الوقت
وقت العربي المحروم المظلوم المضطهد المستعمر
وقت الوقوف على عتبة كوكب اخر
وقت الحرية التي تتحول الى سجن
والسجن الذي يصير حياة ،
ولنعلن تغيير الانسان العربي ، ولنعلن الشعر .

***

١ ــ كل ابداع مخاطرة . كل ابداع حرب . والمبدع محارب : يحارب الاخر ، والمؤسسات والجمود ، ونفسه، وبقدر ما يجرؤ ، ويقتحم ، يدخل في الخطر ، يدخل في منطقة الابداع .

غير ان الابداع الحقيقي هو المغامرة في العالمين الداخلي والخارجي . فهذان العالمان وحدة لا تتجزأ . بل اننا ، اليوم ، نستشعر الحاجة اكثر من اي وقت مضى الى المغامرة في العالم الخارجي واقتحامه . فهو ، حولنا ، بنوع خاص عالم جمود وطغيان واستعمار واستغلال وحيلولة دون الحرية والكرامة ، ودون الانسان في تحقيق انسانيته . نحن في حاجة ملحة الى ان نحارب هذا العالم وان نفضح وحشيته وشراسته وقبحه وحيوانيته.

كيف يستطيع الفنان ان يرضى عن مثل هذا العالم؟ كيف يرضى بأن يتوظف عنده مهرجا ينشده ويطربه ؟ كيف يستطيع ان يسد اذنيه دون صرخات العذاب والجوع ؟ ان يزين القصور وينسى الانقاض والسجون ؟ ان الخيانة الكبرى لقضية الانسان لا تتمثل في الطاغية او المستعمر ، اكثر مما تتمثل في الفنان الذي يسكت على الطاغية المستعمر او يهادنه ، او يعيش في الريش والحرير حيث لا وجود لغير المعذبين، ولغير العذاب والفقر والعبودية.

مثل هذا العالم سجن . ومهمة الفنان الاولى هي ان يقوض جدرانه .

ب ــ « في البدء كان الكلمة » : **في البدء كان الشعر . الشعر يتقدم الفعل (العمل) . الشعر البرق وما ياتي بعده الفعل .** لكنهما معا وجها العالم .

ولان الشعر بداية ، يجب ان نبدأ اولا **بقتل الشعر ــ النبي الدجال** : الشعر الذي يصف ، الشعر الذي يصنع ويصوغ ويلعب . شعر السرد والتعليم والتخليق والتسييس والتثقيف والتفسير والتحليل والتمذهب والترسل ، ــ ذاكرين انه لن يكون الشاعر العربي شاعر النصف الثاني من القرن العشرين ما لم يكن ، في الوقت ذاته ، على طريقته وبحسب استعداده ، متدينا ، ملحدا ، سياسيا ، عالما ، فيلسوفا ، قائدا ، نبيا ــ ما لم يكن **كونيا .**

يبدأ بقتل النبي الدجال من اجل ان يقوم الشعر ــ البداية ،

شعر الحضور الخلاق المغير ،

الشعر الذي **يتقدم سير الانسان ،**

الشعر الذي **يفجر الفعل ــ يكون فعلا .**

***

ج ــ هذا الشعر ــ البداية لا يخلقه غير الشاعر ــ البداية : الشاعر الذي يكون ، في حدسه وحساسيته ورؤياه ، **انسانا جديدا .**

ومن هو الانسان العربي الجديد ؟ هو الحر ، **الخلاق ، الفاعل ، خارق العادة** : يتجاوز الماضي ، ويعانق الحاضر فيما يقف على عتبة المستقبل . خارق العادة ثائر ، بالطبيعة . الشاعر ثائر بالطبيعة . فليس شاعرا من ليس ثائرا . لا **الثورة ــ النظام** ، التي تأسر الواقع وتحكمه ، بل **الثورة ــ الرؤيا** التي تحرك الواقع وتغيره . ثم **تعود فتحرك ما حركه ، وتغير ما غيرته ، ابديا ، بحيث يصبح الشعر عملا اخر والعمل شعرا اخر .**

وكما ان الشاعر والثائر واحد ، كذلك الشعر والثورة واحد . **الثورة فعل برؤيا ، والشعر رؤيا بفعل. معا يوقظان الحاضر ويقودانه الى عناق ما ياتي .**

***

د ــ ما ياتي ، اي ما يتطلع اليه الشاعر هو انسانية عادلة ، مبدعة ، حرة . هو الانسان الذي يعيد ابتكار كل شيء فيما يمد جذوره في الآتي . والآتي لا نهائي . **فليس شاعرا من ليس لانهائيا .**

وفي هذه البقعة العربية كثير مما يغذي فينا هذه اللانهائية . فهي ، في الاصل ، ارض ولادة ونبوة ، يتحدث ابناؤها مع الله وجها لوجه . فالانسان فيها ، مسكون فطريا بما وراءها ، بالغيب . المعلوم عنده عتبة لغير المعلوم . والنهاية مدخل الى اللانهاية . انه **بطبيعته مرشوق** نحو الابعد الاكثر غيبا ، مشدود الى الجانب الخفي الاخر من هذا العالم . فهو يؤمن ، بالفطرة ، ان حياته الجارية ليست الا جزءا باهتا يسيرا من الحياة .

بهذا تتم الوحدة بين الواقع والممكن ، الزمني وما فوق الزمني ، الشيء والخيال . وبهذا يتم تخطي الثنائيات نحو تركيب وجودي اخر تتوحد فيه حيوية الاشراف او المعرفة ، بحيوية الابداع او العمل .

***

هـ ــ ليس شاعرا ، اذن ، من لا يكون تغيير العالم في اساس حدسه الشعري . فكما ينسلخ الشاعر من نفسه ، لكي يجد نفسه ، كذلك يهيىء للعالم ان ينسلخ من نفسه ، لكي يجد نفسه . فالعالم جسد الشاعر . لا يستطيع الا ان يحركه ، الا ان يغيره . وحين لا يفعل يكون ميتا : فليس شاعرا عربيا من لا يكون ثائرا ــ منغرسا في حياته العربية من اجل ان يغيرها ، ان يتخطى اشكالها الهرمة ، ويخلق لها اشكالا جديدة .

كل شيء في الحياة العربية للموت والقيامة : البيت ، العائلة ، المدرسة ، الكنيسة ، الكتاب ، الحب ، الحرية ، العدالة ، الانسان ، الشعر ، الله ...

ليس شاعرا من لا يعلن هذا الموت ، مبشرا بالقيامة .

لكن يبدو ان حياتنا هي من العفن والتحجر بحيث انها لا تستحق نعمة الموت . لانها لم تعرف الحياة . وكيف يموت من لا يحيا ، او كيف يحيا من لا يموت ؟

ولان مرض حياتنا الاعظم هو في انها لا تريد ان تموت ، بل تريد ان تبقى متارجحة في هذه اللحظة الواقفة بين الحياة والموت . **فليست الحياة عندنا حياة ولا موت ، بل عادة .** والعادة تتحول الى مملكة . ولهذه المملكة قوانين ومقاييس ، والزام وجزاء . فيها يلتقي العمق والبعد ، وتنفتح هوة بين النفس والجسد ، الباطن والظاهر ، الانسان والانسان ، الانسان والغيب .

ويتحجر ، معا ، الانسان والله .

لننظر ، مثلا الى تراثنا بما فيه من قيم دينية وغير دينية . نحن في الواقع بعيدون عنه ، فكرا وتطبيقا . لاننا اذن غير مؤمنين به . مع ذلك ، لا نفكر الا به وفيه . نفكر به وفيه كما لو اننا نريد ان نحافظ عليه الى الابد . ثم اننا نعيش حياتنا اليومية كما لو اننا نمقته ونريد ان يزول الى الابد . انه طريق تجاوزناها ، لكننا نسير عليها باستمرار .

ليس شاعرا في حياتنا من لا يعمل على موت حياتنا هذه ، من اجل ان تحيا . ليس شاعرا من لا يموت ، هو كذلك ، من اجل ان يحيا ، فيخلق ، ويهيىء لنا السكنى في مملكة الانبثاق والاشراق ، حيث نتحرك ، ووجهنا الى الغيب ، في مد اشعاع وتوتر .

***

الشعر العربي بامتياز هو ، اليوم ، **شعر التوتر الخارق بين الاطراف** . ففي هذا التوتر علامة الاستقصاء الاغنى والاقصى . وفيه دعوة الى ان **يكون الشعر تجربة كلية تتعانق فيها الشهادة بالموت والشهادة بالنطق: تجربة تتخطى تناقضات الفكر والحياة معا ، وتكون بشارة خلاص من الوضع الانساني الميت ، ــ بشارة بنهاية الانسان القديم من اجل ولادة انسان جديد اخر ، يكون الطبيعة وما وراءها ، الحضور والغيب في آن .**

ادونيس